المرأة الأجنبية في القصة الشعرية العربية

الأستاذة: نسيمة زمالي

جامعة تبسة/الجزائر

موضوع المرأة من أهم الموضوعات التي تناولها أدب الإنسانية منذ الملاحم والأساطير، وكان استحضارها فيه قويا مكثفا، والشاعر العربي لم يكن بمنأى عن هذا الموضوع، فحضرت المرأة في شعره من عصر المعلقات إلى اليوم، ومن المعروف أن الشاعر الحديث قد جال في مختلف ميادين الحياة واستخلص منها العبر؛ بتصوير ما يجري فيها؛ فنقل صورا متفاوتة وحتى متناقضة للمرأة، لكن هل اكتفى الشاعر العربي بنقل صورة المرأة العربية، أم أن الأجنبية قد سجلت بدورها لمساتها وحضورها في تاريخ الشعر العربي؟ هل كان تواجدها سلبيا أم إيجابيا؟ هل كان الحديث عنها اعتباطا، أم أن حضورها كان لضرورات اجتماعية سياسية وإنسانية، وحتى قومية؟

لقد كانت وقفة الشاعر العربي في العصور الخوالي مع المرأة، وقفة تتطلبها بيئته بمعطياتها الفكرية النفسية والجمالية، حتى أنه ليكاد يجمع أغلب الشعراء على صورة واحدة للمرأة؛ فكأن الشعراء قد وطنوا النفس على صب جميع نسائهم في قالب واحد، فبدت "طويلة القامة رشيقة القد، لطيفة الخصر، بيضاء، قد أشرقت بياضا وصفاء كالمرآة المجلوة، صاحبة خد أسيل وجيد مديد، كجيد الغزال، يكسو شعرها الطويل الأسود كتفيها، وقد أرسلته مفتول الغدائر، يتيه فيه المشط .

وهي عنده رمز الجمال والسعادة، لهذا يورد لها كل عناصر الجمال وينفي عنها كل صفات القبح...فهو كالرسام أو المثال الذي يجتهد في إبداع الصورة الجميلة والمكتملة للمرأة المنشودة، ثم أن المرأة ترمز للسعادة المنشودة، ولأن هذه السعادة عصية هاربة، فإن شعور الإنسان بها يزداد عمقا وبروزا عند إفلاتها منه، ولهذا نجد ولوع الشاعر بالمرأة شديدا متينا، فكانت سعادته متعلقة بالمرأة وطلب وصالها، فإذا ما حدث الصرم أو البين، كان ذلك بمثابة الصدع

الذي يصيب نفس الشاعر وهو صدع لا يجبر، لأنه في أغلب التجارب يقترن بعدم القدرة على تحقيق السعادة.

ولا شك أن ما يبدو من نمطية في النماذج الجمالية المذكورة، يرجع إلى أسباب تتعلق بالواقع الذي عاشه الشاعر الجاهلي، ذلك الواقع الخلي من كل جمال ونعومة ودفئ، فلا الفراش الوثير، ولا القصر المنيف، ولا الطبيعة الملهمة الناطقة بالجمال والإعجاز الرباني، ولا الطعام الشهي والشراب الموفور، لذلك كانت المرأة هي رمز كل جمال ومتعة، لذلك تفننوا في تصويرها، ورصد مظاهر جمالها.

وحافظ الشاعر العربي على تلك الصورة النمطية للمرأة إلى حلول العصر الحديث، حين بدأ الوعي العربي بالبروز، ولا أحد ينكر أن أوضاع العالم العربي خاصة ما بين الحربين العالميتين، وما بعد الحرب العالمية الثانية وعلى جميع الأصعدة كانت متردية متهاوية ما أملى عليه الالتفات إلى مختلف الموضوعات واستجلاء صور المرأة فيها؛ سيما بعد أن وعى مدى أهمية ومكانة المرأة في بناء المجتمعات والارتقاء بها، فوقف الشعراء على مختلف القضايا وأسالوا الكثير من الحبر فيها كجميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي حافظ إبراهيم، طانيوس عبده، كامل أمين وغيرهم، "فقد صور شعراؤنا نماذج بشرية تمثل أنواع البؤس الاجتماعي، فكشفوا في أقاصيصهم عن مآسي الفقر والمرض والجهل، وما يتبعها من جوع وبُتْم وسرقة وإجرام، وطالبوا تصريحا أو تلميحا بمعالجة هذه الأدواء عن طريق محاربة أسبابها المتعددة، وعلى رأسها الحاجة والبطالة.

كما حاربوا الفساد الخلقي الذي جرته الحربين العالميتين، وما نتج عنه من الخنا والفحش والبغاء، ونددوا بكثير من المفاسد المستهجنة، كالغش والخداع والحسد والحقد، والغدر والكيد، والكبرياء والرياء، والرقص والتهتك،

واهتموا بالمرأة خاصة، وبقضايا الزواج عامة، وكشفوا عن أثر البيئة الفاسدة في نشأة المرأة، وحذروا من المومسات والبغيات، وبائعات الهوى العابثات، وفي مقابل هذا كله، وعوا المُثُل العليا التي يجب أن يرسي المجتمع قواعده عليها، فمجدوا الفضائل السامية، كالشرف والعفة، والأمانة والوفاء، وأشادوا عموما بالخلق الكريم.

كما نقلوا إلينا شدة تعاطفهم مع تلك الشرائح المحرومة، وبثوها نقدهم الاجتماعي، ووجهوا من خلالها المجتمع وحظُّوه على وجوب تحقيق العدالة الاجتماعية لرفع البؤس عن البائسين، ومحو الضيم عن المظلومين.

فجاءت الموضوعات غزيرة، ومرد تلك الغزارة طبيعة القصة الشعرية . على خلاف النثرية . من رنة موسيقية، ونبرات تناغمية، وعبارات مشحونة بالصور والأخيلة تعمل على هز المشاعر، وشحذ الأفكار والتحليق بالقارئ والسامع إلى آفاق بعيدة، ثم أن الشاعر القصصي "يصور في بطله من شؤون النفس البشرية ونزعاتها المتمردة وميولها الصاخبة ما لا يصوره شاعر آخر من صاغة الكلام، لأنه يضم إلى إحساسه الفطري وعبقريته المبدعة، سليقة الرسام، وموهبة الموسيقي، وشجو المغني، وزخرف الطبيعة المبدعة."[1]

وحين ألمت بالوطن العربي صنوف النكبات والأزمات؛ و رأى الشاعر أمته تتخبط في ظلام الجهل والاستعمار، وبعد أن أحرقته أتون القضايا المصيرية لمختلف ربوع أمته العربية، شحذ قلمه وأشهره لمواجهة مختلف تلك القضايا؛ فبدا مرة راضيا، وأخرى ساخطا، وثالثة منددا، واستنفذ جميع الوسائل، وسلك كل الطرق، وصال بقلمه وجال بلسانه في جميع ميادين الشعر عله يقع على الدواء الشافي لمختلف أدواء أمته؛ فبعد أن سبر أغوار المجتمع، وشرَّح

---

[1] – يوسف البعيني/ الشعر القصصي وحاجة الأدب إليه. مجلة العصبة ، كانون الأول، سنة 1939. ص: 751

مختلف قضاياه، عاد إلى التاريخ، ونهل من الأسطورة، واستشهد بالشخصيات القومية اللامعة، وشجب أخرى؛ ففي مجال القصص التاريخي، نجد قصة (بلقيس) لخالد الجرنوسي،[2] وقصة (زنوبيا)[3] لشبلي ملاط، وفي المجال القومي والذي يروي مآسي الاستعمار للدول العربية، كتب خير الدين الزركلي قصة (العذراء)،[4]، ومختار الوكيل (الدخيل المعتدي)، [5] وجليلة الرضا (حان وقت الرحيل).[6]

وفي مجال القصص العاطفي نظم (شبلي ملاط) قصيدة (بين العرس والرمس)،[7] وخليل شيبوب (سليم وسلمى)،[8]وخليل مطران (شهيد المروءة وشهيدة الوفاء)،[9] وإلياس أبو شبكة (المصدورة)،[10] و(إبراهيم محمد نجا)، قصة

---

[2] – خالد الجرنوسي/ اليواقيت. دار الفكر الحديث للطبع والنشر، مصر، الطبعة الأولى، 1954. ص: 97، والقصيدة بعنوان: (ملك وغانية وهدهد).

[3] – شبلي ملاط/ الديوان. الجزء الثاني. ص: 207

[4] – خير الدين الزركلي/ مجلة الرابطة الأدبية الدمشقية. تشرين الأول، 1921، الجزء الثاني. ص: 92

[5] – مختار الوكيل/ الزورق الحالم. المطبعة المصرية الأهلية بالقاهرة، 1936. ص: 40

[6] – جليلة الرضا/ الأجنحة البيضاء. دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، 1959. ص: 127

[7] – شبلي ملاط/ الديوان. ص: 160

[8] – خليل شيبوب/ الفجر الجديد. مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، مصر، 1921. ص: 177

[9] – خليل مطران/ الديوان. ص: 82

[10] – إلياس أبو شبكة. القيثارة. مطبعة مكتبة صادر، بيروت، لبنان، 1926. ص: 52

(الحسناء والبلبل)،[11] وأدلى الشاعر المصري (محمود عماد) بدلوه وكتب قصة (الشاعر و المصور).[12]

وفي مجال القصص الاجتماعي كتب (سليم عنحوري الدمشقي) قصيدة (حكاية حال)،[13]و أشاد (إسكندر الخوري) (بالزوجة العفيفة) ،[14]مثلما أشاد وديع عقل (بالخياطة الحسناء)،[15] و(إبراهيم العريض) بالزوجة الوفية في (أنا الماضي)،[16]والتفتوا إلى الراهبة، فكتب (ندرة حداد) (الراهبة)،[17] كما كتب عنها إلياس فرحات (الراهبة) وإبراهيم العريض، في (شمعة تحترق).[18]

وندد الشعراء برذائل الأخلاق، وانتقدوا نماذج ممن يأتونها؛ فقد شجبوا شخصية المومس، كما فعل أنطونيوس بطرس في (الريال المزيف)،[19] ومثله أمين ناصر الدين في (الشيخ والغانية)،[20]وشبلي ملاط في (الوردة الذابلة)،[21]

---

[11] – إبراهيم محمد نجا/ قصة الحسناء والبلبل. مجلة الرسالة، السنة السادسة عشرة، 1948، العدد 800. ص: 1241

[12] – محمود عماد/ الديوان. مطبعة شبرا الفنية، مصر، 1949. ص: 172

[13] – سليم عنحوري الدمشقي/ آية العصر. (بدون معلومات عن النشر) . ص: 28

[14] – إسكندر الخوري/ مشاهد الحياة. مطبعة بيت المقدس، القدس، 1927. ص: 74

[15] – وديع عقل/ الديوان. طبعة دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1940. ص: 62

[16]– إبراهيم العريض/ شموع. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1956. ص: 36

[17] – ندرة حداد/ أوراق الخريف. مطبعة توبيا، بروكلين، 1941. ص: 173

[18] – إبراهيم العريض/ شموع. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1956. ص: 36

[19] – طانيوس عبده/ الديوان. مطبعة الهلال، مصر، 1952. ص: 41

[20] – أمين ناصر الدين/ الإلهام. مطبعة الصفاء، لبنان، 1931. ص: 170

[21] – شبلي ملاط/ الديوان. ص: 240

والأخطل الصغير (بشارة الخوري) في أحداث قصة (المسلول)،[22] ومثله نزار قباني وقصة (طوق الياسمين).[23]

أما عن الأم فكتب (الشاعر القروي)،(حضن الأم)،[24] وكتب (إيليا أبو ماضي)، قصيدته (هي)،[25] وفي مجال القضايا الغيبية الفلسفية، وفي إطار حقيقة الحياة والموت، كتبت فدوى طوقان قصيدتها (الشاعرة والفراشة)،[26] وكتب قبلها (إيليا أبو ماضي) (الفراشة المحتضرة)[27].

وبانتشار تيار الرومانسية، وظهور أدباء تبنوا هذا الاتجاه، التفت الشعراء للكتابة في مضامينه، منذ مؤسسها (جبران خليل جبران)، وبعده إلياس أبو شبكة، أبو القاسم الشابي، أنور العطار، علي محمود طه، محمود حسن إسماعيل، فدوى طوقان، نازك الملائكة، عبد الوهاب البياتي، بلند الحيدري، المحروق، الوتري؛ والتيجاني يوسف بشير، فكتب إلياس أبو شبكة قصيدة (غلواء)،[28] وخليل مطران، قصة (حكاية عاشقين).[29]

---

[22] – بشارة الخوري (الأخطل الصغير)/ الهوى والشباب. دار المعارف، مصر، 1953. ص: 103

[23] – نزار قباني/ قصائد من نزار قباني. دار الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1960. ص: 111

[24] – الشاعر القروي/ الديوان. ص: 819

[25] – إيليا أبو ماضي/ الجداول. مطبعة مرآة الغرب، نيويورك، 1927. ص: 75

[26] – فدوى طوقان/ وحدي مع الأيام. دار مصر للطباعة، 1952. ص: 17

[27]– إيليا أبو ماضي/ الخمائل. دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية. ص: 35

[28] – إلياس أبو شبكة/ غلواء. دار بيروت، ودار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية،/ 1949، و(غلوء)، هي (أولغا) زوجة الشاعر.

[29] – خليل مطران/ ديوان الخليل. مطبعة دار الهلال، مصر، 1949. ص: 111

ثم عاد الشعراء إلى المنابع القديمة، فاستنطقوا التاريخ فّي شخوص أساطيره، فوظفوها توظيفا رمزيا، لينتقدوا بها سلوكات اجتماعية شائنة كالفقر والجهل واستغلال طبقة لأخرى...كفعل إبراهيم العريض، في (التمثال الحي)،[30] و عبد القادر القط في (مَثَّال)،[31] وأحمد زكي أبو شادي، في (هرقل وديانيره)،[32] وهي جميعها نماذج للمرأة، بكل أصنافها وتوجهاتها الاجتماعية، الفكرية، الدينية، والسياسية.

وفتش الشاعر العربي في تاريخ الأمم الأخرى عن نماذج حية للمرأة، يسوقها عبرة مَرَّة، ومثلا ساميا مرة أخرى، خاصة وأن ظروف المرأة العربية آنذاك وعلى جميع الأصعدة يطبعها التقهقر والتدني، فاستحضروا صورا للمرأة الأجنبية كانت مشرفة، ونبراسا تهتدي به المرأة العربية في دربها الحالك، بينما كان حضور صور أخرى حضورا سلبيا، كان غرض الشعراء من الحديث عنه التحذير من الوقوع في مغبته تارة، والتبَصير بما يحاك في الخفاء من مؤامرات ضد الأمة العربية تارة أخرى، ومن تلك النماذج:

1- **المرأة الفاضلة:** أول قصة في هذا المجال هي (شيرين) لشبلي ملاط؛[33] التي يضرب بها المثل في الوفاء، فصورها امرأة فاضلة، وفية لزوجها

---

[30] – إبراهيم العريض/ العرائس. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1946.

[31] – عبد القادر القط/ ذكريات شباب. دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، 1958. ص: 374

[32] – أحمد زكي أبو شادي/ الينبوع. المطبعة السلفية. الطبعة الأولى، 1924. ص: 37

[33] – شبلي ملاط / الديوان. دار الطباعة والنشر اللبنانية، بيروت، 1952. ص: 200، حيث كانت **(شيرين)** هذه شابة على قدر كبير من الجمال، نشأت يتيمة فقيرة، فكفلها أحد رجال الفرس من ذوي الوجاهة، وتربت مع أحد أبناء **(كسرى)** فولد الحب بينهما

حتى بعد وفاته، فقد أخلصت له من قبل حينا من الدهر، ورأت عصمتها في التحاقها بالدير وصف الراهبات، ودفن شبابها بين جدرانه وقضبانه، ظنا به على غير من عشقت، إلى أن تحين من الدهر غفلة ، فتسرق لحظات هناءة لكن عوادي الدهر رمتها بالأرزاء ثانية، فأصبح فؤادها في غشاء من نبال، ويزيد ابن زوجها الأمر سوءا والطين بلة بنزواته المهووسة، فلا تجد بدا من وضع حدا لحياتها بتجرع السم، وهي راضية كل الرضا.

حيث يقول الشاعر في بعض أبيات القصيدة:

صغيرا، ونما وترعرع بكبرهما، وحدث أن اتفقت مع **(أبرويز)** حبيبها على الوفاء والإخلاص مدى الحياة، وأهداها **(أبرويز)** خاتما دلالة على صدق عهده لها، وحين علم مربيها القصة، خاف من بطش **(كسرى)** فقرر رميها في مياه دجلة وحين استجدته أن لا يفعل، أبعدها عن الديار، فالتجأت إلى أحد الأديرة، وترهبت فيه.

وفي يوم زار أحد خدام الملك الدير لشأن، وكان المُلك قد آل لـ **(أبرويز)** من بعد والده، فأعطتهم الخاتم، وطلبت منهم تسليمه لملكهم، فحن **(أبرويز)** إلى **(شيرين)** وطافت بفؤاده الذكريات الخوالي، فأمر بإحضارها، ثم تزوجها، وأنزلها منزلة عظيمة من ملكه، وبنى لها قصرا على نهر دجلة.

لكن السعادة عمرها قصير، فقد قتل زوجها وحبيبها **(أبرويز)** على يد ابنه من زوجته الأولى، وجاءها الابن يطلب ودَّها وحبها فصدته، فعمل جاهدا على تدنيس سمعتها، ورميها بالأباطيل حتى كرهها الناس ومقتوها، فدعت **(شيرويه)** ابن زوجها يوما، وأخبرته أنها توافقه فيما ذهب إليه شريطة أن يسلمها قتلة زوجها، وأن يكذب الشائعات التي راجت حولها، ثم يسمح لها بالذهاب لزيارة زوجها، فقبل، وحين زارت قبر زوجها **(أبرويز)**، ناجته متحسرة مستحضرة ذكريات الحب والوفاء، وعاهدته على البقاء على العهد، ثم امتصت خاتمها الذي حوى سما زعافا، وسقطت على قبره لافظة أنفاسها الأخيرة.

إيه شيرويه أما تزال تحبني حبا أناخ بأعظمي فبراني
حسن، ولكن لي ثلاث شرائط أو أنت منفذها بغير تـــوان؟
تسليم من قتلوا أباك إلى يدي تكذيب ما اختلقوا وقيل بشاني
وزيارة نـــاووس والـدك الذي لا بد من لقياه قبل قـــراني
لك ما طلبت، وتم في تنفيذ ما أروى وأطفأ نارها شـــرطان
مهلا وليت الموت ينشر ظله فوقي وتسرح في العلا الروحان
وامتصت الشفتان حبة خاتم يا هول ما قد مصت الشفـتان
سم سرى بعروقها فهوت على كفن الحبيب وذلك الجثـمان
وقضى ألوفا أن تلتقي وحبيبها فتلاقيا وتعانق الكـــــفنان

فكرة القصة كما هو جلي تدور حول الوفاء للزوج ولعش الزوجية، و(**شيرين**) بتضحيتها تلك قد غدت مثال الوفاء والإخلاص.

وربما طبيعة الأسرة الفارسية . التي يباح فيها زواج المحارم . هي ما آلت بالابن إلى ذلك المآل، من استباحة لحرمة الوالد، إلى التشهير بزوجته حين رفضت الانصياع لرغبته، إلى قتله والتآمر على عرشه...

أما (شيرين) زوجة والده، فقد كانت مثالا رائعا للإخلاص والوفاء، واعتدال الشخصية، واستواء المبادئ.

وقد كان استحضار الشخصية الأجنبية في الشعر العربي يعود إلى كون الجيل العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين "أشد ما يكون تعطشا إلى مثل هذا الوقود الروحي لمشاعره القومية المتنامية، وتطلعا في طريقه الوعر ونضاله العاثر إلى أروع آيات التضحية والبطولة، والفكرة كما يقول أوغست كونت، هي التي تدفع إلى العمل"[34]، لذلك ساق بعض شعرائنا هذه القصص

[34] – عمر الدقاق/ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث. دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1985. ص: 444

الأجنبية، وهم على معرفة بعدم خلو أدبنا وتاريخنا من ألوان البطولات وصنوف الأمجاد، ولكنهم كانوا كمن يبحث عن بصيص أمل ولو في سراب الصحراء، سيما وأنهم في فترة كبحت مختلف التيارات فيها حرياتهم، وكتمت على أنفاسهم؛ فعانوا قيود نوعين من الاستعمار، استعمار خارجي متكالب، واستعمار داخلي، هو أخطر وأمر على وجدانهم من الغريم الأجنبي.

في مجال القيم الإيجابية التي عمل الشعراء على غرسها دائما، نجد قصة أخرى ومثالا رائعا لزوجة فاضلة، تسهر على راحة زوجها وتربية أولاده، حتى تنزل من نفسه منزلة عظيمة، هي (لؤلؤة الحب)،[35] لإبراهيم العريض،

---

[35] – إبراهيم العريض/ العرائس. ص: 99، وملخصها: أن فتاة حسناء تزوجت أحد الملوك وعشقها غاية العشق، لكنها ماتت، فحزن عليها حزنا شديدا، وارتاع لفراقها، فصمم على تخليد جسدها؛ فصنع لها تابوتا في غاية الإتقان، ووضع تابوتها في بناء شامخ، أسدلت ستائره، فكان يكثر من زيارة ضريحها والتردد عليه، كما كان كثير الأوامر لخدمه بتجديد زينة التابوت والبناء معا، لأنه كان يشعر بروح زوجته تناديه وتنادمه، وبتقدم الأيام والسنين سما في نظره ذلك البناء وتكابر، حتى تراءى له أنه لم يبق إلا أن يُحمل على الأكف، ووصل بعد انفعال وتفاعل مع ذاك البناء إلى ما يشبه مناجاة المتصوفين الإلهية، وحلولهم الروحي في روح الله، وغدا ذاك البناء روحا تناجيه وتحادثه، وتقاسمه الآهات وتصعد معه الزفرات، وفكر في لحظة ضعف روحي وعاطفي أن ذاك البناء لا مكان له في دنيا الأرجاس والأنجاس، بل أضحى الأليق به السمو إلى عالم روحي، وبين الملائكة النورانية.

وهي ولا شك مستوحاة من قصة (تاج محل)،[36] وقد أشار الشاعر إلى أنها من أساطير الهند، فيقول:

فعاش لإمتاعها في الوجود ونور بالحب أيـــامـــــها

وحل الخريف لتنعى الطيور إلى الروض أوراقه الهاطلة

إلى قوله: وروى طويلا وقال: ارفعوه، وأومأ للتربة الزاكية

ومثلت ممتاز محل فكرة فلسفية، طالما كانت محل جدل بين العلماء والفلاسفة قبل أن يفصل الإسلام فيها، وهي (الروح)؛ التي هي من أمر رب الكون، فمهما بالغ الزوج في إكرام جسد زوجته إلا أنها تبقى جثة هامدة، وكتلة لحمية لا قيمة لها، بعد أن غادرتها الروح . التي هي كل شيء . إلى عالم الملكوت بلا رجعة.

كما سمت الأسطورة بالعلاقة بين الرجل والمرأة، حيث كانا زوجين ولم يكونا عاشقين أو حبيبين، وبذلك سمت بالعلاقة بينهما إلى الطهر والقداسة.

وقد رأى هذا الزوج المكلوم بفراق زوجته في ذاك الضريح سنن الكون، وأطياف روح الله، المتجلي في جمال تلك الزوجة بطيبتها وأخلاقها وإخلاصها، فعكف عليه عكوف العابد في محرابه، يناجي روحها التي هي نفخة من روح الله، فأضحى ذاك الضريح رمزا لله نفسه، وحمل شيئا من صفاته، فارتاح له واعتكف عليه لاجتماع المحبوبين لديه، وفي سعيه إلى ذاك البناء الشامخ، إنما

---

[36] – ***تاج محل:*** ضريح عجيب الصنع، أنيق الهندسة، شيده الملك **(شاه جهان)** لرفات زوجته **(ممتاز محل)** الذي حُرِّف اسمها فيما بعد، فأصبح **(تاج محل)**، وكان يحبها حبا شديدا، وقد ولدت له أربعة عشر ولدا، وتوفت إثر وضع مولودها الأخير، وأراد أن يخلد حبها، فاستعان بأساطين الهندسة وفنون العمارة، واستغرق بناؤه اثنتين وعشرين سنة، حتى غدا تحفة فنية في عالم الهندسة والعمران. انظر: دائرة المعارف الإسلامية. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، المجلد الرابع، العدد السابع. ص: 45

كان يسعى للاتصال بالروحين كما يفعل الصوفية في الحضرة الإلهية، لذلك كان يختاره ملاذا ومعتصما، للارتواء من نفحات الأمن والسكينة والطمأنينة.

2- المرأة المحاربة:

المرأة المحاربة تتمثل في شخصية (جان دارك) للشاعر عمر أبي ريشة[37]، وقد أوحت له بها لوحة رآها في متحف **(اللوفر) بباريس**، وقد كانت صورة لفتاة رائعة الجمال، على صهوة جواد أدهم، فاستغرب الشاعر عندما علم أنها **(جان دارك)**، قائدة الجيوش الفرنسية، فسبح به خياله، ونسج لها أحداث قصة؛ فصورها بداية الأمر في غرفتها، تحلم . كباقي فتيات عصرها . بالعيشة الهنيئة بجانب الحبيب، الذي راح يضمها ويحنو عليها، لكنها تستفيق من حلمها، وتخجل من خواطرها بتذكرها للصليب، فتركع جاثية لصليبها، وتتوالى الأيام، وتخرج الغادة **(جان دارك)** في قيادة الجيوش، حاملة علم البلاد وكرت وفرَّت على العدو بسيفها، حيث يصف الشاعر جيشها قائلا:

وبنت له خلف الضلوع هياكل الحب الرحيبة
وأتت على أمل الشباب وطيب زهرته الرطيبة
ينساب في الوادي كما الرقطاء بات لها قوائم
والأفق مطروق العيون بلفحة والصخر شاتم

لقد رفع الشاعر الفتاة الفرنسية **(جان دارك)** إلى مصاف القدِّيسين، وجعل من قصة حرقها ورباطة جأشها وإيمانها بحق وطنها في الحرية أسطورة لا زالت تحيا بين الشعوب، مثلما لم يفته الجانب الواقعي الذي تلزمه الأمانة العلمية والالتزام لأمته بتوثيقه، فرسم (جان دارك) على صورتين؛ صورتها قبل

---

[37] – عمر أبو ريشة/ مختارات. مطابع دار الكشاف ، بيروت، لبنان. ص: 87

الحرب، وهي تحلم بمن يقدر جمالها ويحبها ويحنو عليها؛ إذ جلست تتأمل مفاتنها ومحاسنها، وأحلام الشباب تدغدغ ألحاظها، والرؤى تملأ نفسها الحالمة، شأنها في ذلك شأن أي فتاة من أترابها.

وصورة أخرى بعيدة كل البعد عن الأولى؛ حين غدت بطلة قومية، تمتطي جوادها، وتقود الفرسان، تكر وتفر في عزم حتى تهزم أعداءها شر هزيمة.

ومما يحق لنا ذكره، أن حياة العرب في ماضيها وحاضرها، حافلة بالبطولة والأمجاد النادرة، إلا أنها لم تقعد بهم عن عشق بطولة أقوام غير أقوامهم، وأرض غير أرضهم، فاستمدوا موضوعات البطولة من معين ناء عن الوطن العربي، "ولهذا الأمر دلالته، إذ أن معالجة مثل هذه القصص البطولية*[38]، ينم على نزوح ملح في ضمير الشعراء، نحو استجلاء آيات البطولة وتصويرها، مما يصادف هوى في نفوس الشعوب العربية المتطلعة في معركة المصير نحو البطولات المثلى، وليس للبطولة وطن كما يقال."[39]

وإذا كانت بطولات الرجال بالغة الأهمية في نشر الوعي القومي، وترسيخ مبادئ حب الوطن، فإن بطولات المرأة أجدى، وأبلغ فاعلية في ذلك، خاصة، والعربي لم يعهد المرأة إلا شيئا جميلا، يوضع بين جدران البيوت ليضفي على حياة الرجل أنسا ولذة وسكينة، فلا بد أن يناله العجب، وهو يراها وقد تحررت فجأة من قيود الغدائر، وتبعية الخدر، فراحت تبحث عن ذاتها، لتعيد تشكيلها، مفتكة لنفسها المكانة التي تليق بها، بعد أن علا بوق النفير، وتصاعدت زفرات

---

* انظر مثلا : قصيدة خير الدين الزركلي المعربة عن الفرنسية (الديدبان) أي الحارس الذي ضحى بنفسه لينقذ جيش قومه، و(فتاة الجبل الأسود) لخليل مطران، و(معركة ستالينغراد) لعلي محمود طه، و (شهيد إيرلندا) لخليل مردم....

[39] – عمر الدقاق/ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث (بتصرف). ص: 436

المقاتلين، واشتدت نيران المعارك، وحمي وطيسها، فلم يعد هناك فرق بين آدم وحواء في ميدان الشرف، الذي لا مكان فيه للمتخلفين والقاعدين والجبناء.

3- المجرمة السياسية:

مثلما ساق الشعراء الحديث عن النماذج المشرفة، لينصفوا التاريخ، ويعترفوا للآخر بحقه وفضله، كانت لهم وقفة مع نماذج سلبية، أرادوا التحذير منها، والتنديد بها، لأن أدب الإنسانية بحر متصل، وحياتنا كما قال عنها القالي في **أماليه:** "صيرورة مستمرة، هي نهر له منبع ومصب، ولا يمكن أن يستغني المصب عن المنبع، كل شيء في الحياة هو تواصل وتسلسل، ومنذ القدم عرف العربي بروح المحافظة، وإجلاله للسلف الصالح، واعتزازه بنسبه العريق."[40]

وهذه الشخصية، هي شخصية لمجرمة حرب، مثلتها قصيدة (راشيل شوارزنبرغ) (لنزار قباني)[41]، وتحكي انتهاكات هذه الشخصية القذرة، ووقوفها

---

[40] – أبو علي القالي/ الأمالي. الهيئة العامة للكتاب، 1975، الجزء 01، أو طبعة مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، 1373 هـ/ 1953م. ص: 38

[41] – نزار قباني/ قصة راشيل شوارزنبرغ. مجلة الآداب، العدد الثاني، 1956. ص: 01، وقال عنها أنه يهديها العرب الصغار، والقصة عبارة عن مشاهد ثلاثة؛ صور في الأول **(راشيل)** وهي إرهابية مجندة، قضت سني الحرب في زنزانة منفردة شيدها الألمان في **(براغ)**، وكانت قبلها تدير بيتا للدعارة، ووالدها من أقذر اليهود مهنته تزوير النقود، وقد أبحرت **راشيل** "في سفن الجرذان والطاعون واليهود، كي تحتل محل أختها العربية **(نوار)** التي قتلها الصهاينة هي وأباها، وكي تدنس أرض بيارتنا الخضراء في الخليل، أرض أختي نوار التي شنقوها من شعرها.

ويذكر **(نزار)** **(يافا)**، التي لا يجب أن ينساها العرب المسلمون، ويخبرنا كذلك عن بيارات البرتقال، التي انتزعها اليهودي بالقوة، ثم يتحدث عن الفلاح البسيط

خلف أبشع الجرائم في تاريخ الشعب الفلسطيني، حيث تساهم في قتل الأخت العربية وتعليقها من شعرها بعد هتك إزارها وإثخانها بالجراح، ثم قتل والدها بطلقة غادرة؛ لأنه ثار لأرضه المستباحة، وحقله المحروق، وقتل المزارع البريئ، الذي لا ذنب له إلا الدفاع عن ثماره التي أتلفت وأرضه التي أحرقت، وهي ولا شك قصة رمزية موجهة للقوى المتحالفة على فلسطين أولا، وموجهة للعرب الخانعين ثانيا، يشعرنا بذلك قول نزار في آخر القصيدة:

وليذكر الصغار

حكاية الأرض التي ضيعها الكبار

والأمم المتحدة

ولا شك أن (راشيل شوارزنبرغ) رمز لإسرائيل، وسمها الشاعر بأقذر الصفات، حتى يحمل الأجيال العربية على كرهها ومقتها، فهي تدير وكرا للدعارة، وما أقبحها من مهنة، ثم تتحول إلى إرهابية مجندة، تدربت في أحلك الظروف والأماكن حتى غدت شرا متنقلا، تقتل بدم بارد، ولا تهاب الحديد والنار.

أما الأخت العربية فهي رمز لفلسطين السليبة التي انطوت عليها حيلة بريطانيا وخديعة الأمم المتحدة، وما قتْلُها وتمزيقها إلا إيحاء بتقسيمها بين

والد الفتاة (**نوار**)، والذي تأججت فيه كرامة الأرض والغيرة على التراب، حين رأى بيادر النجوم تحرق، وتحرق معها أحلام الأطفال الخمسة، وزفير الليل، فثار، ولكنهم أردوه بطلقة سددها كلب من الكلاب، وكفه مشدودة إلى التراب، وفي الثاني: يصور (**الأخت العربية**) التي قتلت على يد اليهود، حين علقوها من شعرها الطويل، مهتوكة الإزار، مثخنة بالجراح، والمشهد الأخير: يرسم فيه صورة مُزارع من (**يافا**)، وقد اعتدى عليه اليهود، فأتلفوا ثماره، وأشعلوا النار في حقوله، وأخيرا قتلوه بطلقة نارية.

العرب واليهود، بينما المزارع صورة لانتهاكات إسرائيل في أرض فلسطين، من حرق البيارات، وقتل الأبرياء دون رادع يردها عن رعونتها الهوجاء، ثم هو صورة لتعلق الفلسطيني بأرضه ومحاولة الذود عنها بأنفس ما يملك، دمه ونفسه.

وهي ولا شك دعوة صريحة للثورة ليافا وفلسطين؛ التي كانت لعيسى مهدا ولمحمد مسرى، ولجميع الأنبياء مبعثا، وكانت أرضها الطاهرة موئلا للجهاد الدائب والصراع الدامي، وكانت أرضها قبلة الشهداء وتربة البطولات.

لقد كانت أكبر مصيبة ألمت بالعرب في العصر الحديث، "هي انتصاب إسرائيل عنوة في جزء هام من وطنهم، اغتصبته اغتصابا، وشردت أهله، فهجرت شعبا كاملا وطرحته على هامش التراب العربي أشلاء متناثرة، يبذل الكيان الفلسطيني جهدا جهيدا حتى يتواصل فيها وجوده ويستمر"[42]، ولم ينس هذا المشرد أرضه رغم طول السنين، إنما ازدادت حدة مأساته، وازدادت صلته بوطنه الجريح توثقا، فلم تعد فلسطين مجرد أرض، بل أصبحت جزءا من جسد كل فلسطيني، وذابت في لحمه ودمه وشرايينه.

ولم تعد فلسطين شأنا وطنيا فقط، وإنما غدت معضلة العرب أجمعين، "فقد تحولت حادثة افتكاك فلسطين واستيطانها إلى عملية اغتصاب جنسية، فاستوى الوطن العربي امرأة، واستقرت فلسطين في موطن الرحم منها، فهي محط الشرف وعنوانه وما افتكاكها إلا فض لبكارتها ودوس للشرف والكرامة، ولا يخفى ما في هذا من اتهام صارخ للعرب، فقد قعدوا عن الدفاع عن حياضهم، وخانهم ما يدعون من فحولة، ومات فيهم حس الرجولة، فسكنوا إلى العار والذل، والعدو أمامهم يأتي أرضهم وينال منها وطره ويشبع شبقه، فإذا هم

---

[42] – عبد الصمد زايد/ المكان في الرواية العربية (الصورة والدلالة). دار محمد علي للنشر، صفاقس الجديدة، الجمهورية التونسية، طبعة 2010. ص: 261

كأشباه الرجال، ولا رجال، وما أحوجهم أن يدركوا أنه من الهين قصر الشرف العربي على المرأة ووضعه بين فخذيها وديعة وأمانة تصونها وتحميها، فمثل هذا الفهم للشرف فهم بدائي محدود، أما الشرف الفعلي الحقيقي فشرف أن تملأ مكانك بين الرجال، وتقف من دونه ليكون حصينا منيعا، لا يجرؤ الغرباء حتى على الطمع فيه."[43]

وتجدر الإشارة إلى أن التفريط في الأرض معادل للتفريط في العرض، والتمسك بها هو الوجود في حد ذاته، وبناء على هذا فالعرب بتفريطهم في جزء من أرضهم لم يعودوا أهلا للحياة، خاصة حين فقدوا القدرة على رد الفعل؛ فقبعوا يلوكون مرارة الظلم وقساوة الشعور بالعجز، تجاه إحساسهم الوجداني بالطعنة النجلاء الموجهة إليهم جميعا، وليس لشعب فلسطين فقط، واستيقظ لديهم الحس القومي حينما وضعت الأرض موضع المساومة والتقسيم، مما يوحي بأن نمو الحس القومي قرين بالأرض، وأن حركته رهن ما يصيب الأرض من جليل الملمات والأحداث، فلا تصبح الأرض مجرد مساحة وفضاء، بل تغدو رمز الوجود الإنساني في حد ذاته.

ورغم شراسة الحركة الصهيونية إلا أن العرب لم يفقدوا الحلم بالعودة، ولو كان حلمهم كذوبا، يصور لهم أن نفي الشعب الفلسطيني وتغريبه، ما هو إلا حدث وقتي وساعة عسر، لا بد أن تتبع بساعات اليسر والرجوع والسعادة بالديار، ولكن الواقع لا يلبث أن يصدمهم من جديد بوجهه الكالح الصلب، فيتبدد الأمل ليسلمهم إلى مرارة الواقع، بعيدا عن سحر الأماني وبريقها.

ويتحول بذلك الحلم بالعودة إلى الوطن الموعود إلى "عقدة نفسية مرضية تعطب الذات وتربكها، وتزيف علاقتها بالواقع، وتضيق نظرتها إليه،

---

[43]– عبد الصمد زايد/ المكان في الرواية العربية. ص: 261.

وتقضي على الفلسطينيين بوضع حرج، مشوه ثقيل الوطأة، لا هم فيه عائدون فعلا إلى الأرض المنشودة، ولا هم مستقرون فيما اختاروه من المهاجر."[44]

وكانت مصيبتهم الأدهى والأمر في كون الكيان المنتصب في أرضهم، هو إسرائيل، لأن هذه الأخيرة استعمار استيطاني نفض يده من كل فضيلة أو خلق، حين حافظت بعض الحركات الاستعمارية على بقية من أخلاق وكرامة، جعلتها تغادر الأوطان التي استلبتها قبل أن تسلب آخر ذرة من وجودها وكرامتها.

4- المرأة المقموعة:

المرأة المقموعة، يصورها (إيليا أبو ماضي) في قصيدته (بائعة الورد)،[45] كانت بطلة هذه القصة ضحية مؤامرة لا أخلاقية، وحين تثور لتنتقم، تنتهي

---

[44] - عبد الصمد زايد/ المكان في الرواية العربية. ص: 262

[45] - زهير ميرزا/ إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر. ص: 463، وما بعدها، ويحكي فيها **(إيليا)** قصة فتاة جميلة، رحلت أمها عن الدنيا، عقب ولادتها، وتوفي والدها منتحرا وكبرت يتيمة تبيع الورد، لتكفل نفسها شر الفاقة، وتعرفت في شبابها على فتى جميل وسيم، ظنت أنه سندها في الدنيا بعد والديها إذ أحبته حبا جنونيا مما دفع بها إلى تسليم عفتها له، لكنه رحل عنها منذ أخذ منها مأربه. ولقيته مرة، فراحت تؤنبه على فعلته وعلى غيابه، وتسأله اللقاء والزواج، ولما ألحت عليه فاجأها بقوله، أنه متزوج، ولن يخدع زوجته بزوجة ثانية، عندها أحست نفسها في غير دنيانا، وأصابها مثل الجنون، وأخذت سكينا وطعنته به، وحين أدركت فداحة فعلتها، انتحرت.

حياتها بفاجعة، وتغدو قصتها حديث العام والخاص، فيقول الشاعر واصفا الفتاة:

من الفرنسيس قيد العين صورتها عذراء قد ملئت أجفانها حـــورا
كأنما وهبتها الشمس صفحتها وجها وحاكت لها أسلاكها شعرا
يد المنية طاحت غب مولدها بأمها، وأبـــــوها مات منتحـرا
يتيمـة ما لـهـا أم تلـــوذ بـــها ولا أب إن دعته نحوها حضـرا
هامت به وهي لا تدري لشقوتها بأنـــها قد أحبت أرقـــــما ذكرا
يا سالبي عفتي من قبل تهجرني اردد علي عفافي واردد الطهـرا
وأقبلت نحـــوه تغلي مراجـــلها كأنها بركـــــان ثار وانفجـــرا
وأبصر النصل تخفيه أنامـــــلها فراح يركض نحو الباب منذعرا
لكنها عاجـــــلته غير وانـــية بطعنة، فجرت في صدره نهرا

فهذه المرأة الأجنبية هي فتاة مقموعة في إنسانيتها، مقموعة في شرفها، بائسة فقيرة يتيمة، ظنت نفسها قد وجدت سندا وبديلا لوالديها، فإذا به أفعوان يتحين الفرصة ليصيب منها مقتلا، فكان مثالا للخيانة والغدر والخداع، فحين غدر بالفتاة المسكينة، وتلاعب بعواطفها وشرفها، كان يخون زوجة ما خانته يوما ولا غدرت بعرضه.

وهي مقموعة من المجتمع؛ لأنها مثال للكدح الشاق من خلال ارتزاقها من بيع الورد، فشقت لنفسها طريقا محفوفا بالأشواك في سبيل اللقمة الحلال الطيبة، لكن هذا الفتى الغادر الخائن، جرها إلى مستنقع الفساد، فاعتدى على شرفها، وذبح كرامتها التي حافظت عليها بارتزاقها من بيع الورد، فلو أرادت الرذيلة لما كلفت نفسها ذل العمل وقلة مدخوله، وتعرضها لكل ذاهب وآت بوريدات تعرضها عليه، قد يفهم قيمتها ويشتريها، وقد يعرض عنها، كل ذلك لحفظ ماء وجهها من بيع الشرف، أو التسول، ولكن فتاها ضرب بكل ما

حافظت عليه لسنوات عرض الحائط في لحظة، لذلك لم تجد من وسيلة تستعيد بها بعض شرفها وكرامتها إلا غرز خنجر في قلبه الذي ما عرف المبادئ التي كانت تحملها وتدافع عنها.

وقد تقبع نزعة الشاعر الإنسانية وراء تعاطفه مع هذه الشرائح، ولو كانت من أوطان غير أوطانه؛ لأنه بنفحته الإنسانية أرق الناس شعورا وأدقهم إحساسا وأرهفهم سمعا وأنفذهم بصيرة؛ لذلك "يشعر بمرارة الحياة في أفواه المنكوبين والمظلومين والمحرومين؛ فإذا نظم أو نثر أو خطب أو تحدث، فإنما ليطالب بعدل للمظلوم، ورحمة للضعيف، ونصفة للفقير، وعزة للذليل، وبذا يؤدي بعض رسالته أو كلها."[46]

فهو لا يسخر من المومس أو المنحرفة أو يحتقرها، إنما قد يصلي ويدعو لها ويناصرها، على عكس المجتمع الذي يزدريها؛ لأنها في نظر شاعرنا ضحية ظروفها، ألقت بها الفاقة في حضن الرذيلة، فهو يشفق على تلك الشريحة ويحنو عليها، ويتألم لما حل بها، وينادي: "أن من حق الغانية على المجتمع، قبل أن يزجرها لترعوي، أو يهيب بها لتتطهر، أن يهيء لها العيش الكريم، ويحصنها من الزلل، ويؤنسها بالهداية بعد الضلال."[47]

وقد عاش إيليا أبو ماضي في بلاد الحرية والنور والتحرر والتحري؛ وحينما نقل لنا أحداث هذه القصة كان بغرض تصوير حقيقة المرأة التي تصارع في سبيل لقمة العيش، وذلك بعد أن لمس ذل المرأة في حقل العمل،

---

[46] – محمد لطفي جمعة/ العناصر الإنسانية في أدبنا الحديث. مجلة الكتاب، المجلد الثالث. دار المعارف، القاهرة، مصر، 1946. ص: 45

[47] – جمال عبد الرحمن صالح/ نسيب عريضة حياته وشعره. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، القاهرة، 1399هـ/ 1978م. ص: 279، نقلا عن: فصل سالم العيسى/ النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية. ص: 133

لذلك كان يدعو دائما إلى أن المرأة لم تخلق إلا للمنزل، ضنا بكرامتها ومنزلتها أن تتدنى إلى مرتبة الكدح والعمل المضني الشاق، الذي خلق له الرجل وحده، إنما كان ينادي بأن تعاد المرأة إلى عرشها الخالد، في بيت الأبوين أو بيت الزوجية، لذلك كان رأيه في المرأة أنها لم تخلق للعمل والكدح، ولكسب المال، كما لم تخلق لأن تباع وتشرى في سوق نخاسة الزواج، وإنما لها محل واحد عليها ألا تتجاوزه أو تطلب أكثر منه، أو تكلف بغيره، وهو "المنزل".[48]"

والبطلة، هي واحدة من النساء التي طالما دافع عنهن إيليا، بصنفيها؛ المرأة الخيالية والمرأة الواقعية؛ فالأولى هي خدينة الشاعر في رحلاته العلوية، وموضوع غزله ومناجاته وبطلة أقاصيصه، بجمالها الملائكي، وروحها السحرية منبع كل جمال وجلال، والثانية؛ المرأة من حيث هي فرد له مكانته في المجتمع، وله حقوق وواجبات في هذه الحياة كشأن الرجل.

5- المرأة المحافظة:

وفي إطار دعوة الشعراء إلى التمسك بالجذور، بعد خوف من التفسخ وتلاشي الهوية العربية، كتب إلياس فياض (أسطورة نَوْريَّة)،[49] التي تقدس التمسك بالعادات والأعراف.

---

[48] – زهير ميرزا/ إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر. ص: 53 – 54

[49] – إلياس فياض/ رفيف الأقحوان. ديوان فياض، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1954. ص: 75، وهي قصة رويت للشاعر في النمسا، جرت أحداثها في هضبة جبلية؛ حيث بنى أحد الآباء لابنه **(أوسفالد)** قصرا منيفا، حتى يكون سيدا فيه، لكن صحة **(أوسفالد)** ذوت وكان يقيم غير بعيد من قصره قوم من **(النَّوَرِ)** الرحل (قبيلة من الغجر)، وكانت طباعهن مغايرة لطبائع بقية الناس، فقد كانت حياتهم كلها

ومثلت الفتاة الغجرية (أرتموريا)ملامح الحياة الدينية من جهة، حيث يبدو أن النور قوم يتخذون المسيحية ديانة لهم، وبذلك يجمع الدين بين عقيدة الشابين، قبل أن يجمع الحب بين قلبيهما، ويظهر الغجر على خلاف ما يظنهم

غموض، وكانت من نسائهم من تمارس الطب والتنجيم، ومنهن من تخدم في البيوت، لكن باسم مستعار، إذ كان إفشاء أسمائهن عيبا وعارا، وكتمانها واجبا مقدسا.

وزارت القصر يوما عجوز من النور، ورأت حالة (**أوسفالد**)؛ فكتبت له حجابا يقيه الحزن والهم، ويمنحه القوة والعزم، وشفي (**أوسفالد**) فعلا، وخرج يستمتع بالحياة ويعزف العود الذي طالما أحبه ورافقه، وفي إحدى رحلاته الجبلية، انفرد عن أصحابه ليكشف سر صوت شجي سمعه، وبين الخمائل رأى فتاة بين الورود البيضاء تعزف القيثارة وتغني، فحياها واستأنس كلاهما بالآخر، ومع مرور الأيام تحولت اللقاءات إلى حب جارف بين الاثنين، وعرض (**أوسفالد**) الزواج على فتاته، فوافقت، وهو لا يعرف عنها شيئا، حتى اسمها لأن من عادة (النَّوَر) كتمان أسمائهن، وعدم الزواج من الغريب مهما بلغ شأنه.

وتفرح الأم بخبر زواج ابنها، وتعد هدية الزواج، وتطلب من ابنها محاولة معرفة اسم حبيبته لتنقش حروفه على الهدية، ويذهب إليها، وفي الطريق سمع إحدى البدويات تقول لأخرى: غدا تزف (أرتموريا) إلى (أوسفالد)، ويذهب ينادي حبيبته باسمها؛ فتفرق شديد الفرق، وتقول بحزن:(مادمت قد عرفت اسمي، فلا يمكن أن أكون لك)، ثم تسلمه القيثارة وتلوذ بالفرار، وتغطس في النهر، ويغطس وراءها.

وجاء اليوم الموعود (يوم الزفاف) واجتمع الناس في الكنيسة يوم الأحد لرؤية العروسين، وحضور مراسيم الزواج، لكن يفاجئون بجثتين على سرير من الأزهار وبينهما قيثارة مقطوعة الأوتار.

الآخرون بأنهم قوم بلا ضوابط ولا عقيدة، ويتجلى ذلك من خلال الحديث عن الكنيسة وتقديس يوم الأحد، ومباركة الزواج فيه.

وأرتموريا كانت تعيش في مجتمع، وذاك المجتمع . كغيره من المجتمعات . يكبل أفراده بعاداته وأعرافه، ويفرض عليهم نوعا معينا من القواعد والصوابط، وهي كمواطنة كانت ملزمة بالحفاظ على تلك العوائد، سواء أقبلتها أم رفضتها، أحبتها أم تمردت عليها، فرغم حبها الشديد لفتاها إلا أنها حافظت على تقاليد عشيرتها، ورفضت كشف اسمها له.

لقد جمع الفتاة بفتاها أكثر من رابط؛ فقد جمعهما الحب، ووحدهما الفن، وقاربتهما الميول والأهواء والطبائع، لكن فرقهما المجتمع بثوابته المقدسة، فكان وثاقه أشد، وعروته أوثق من العاطفة السامية، والمجتمع رمز للجذور، للفطرة الأولى، للحجر الأساس، للأصالة، ولعل حب الفتى، هو الجديد، هو المعاصرة، هو الانفلات من الجذور، والاجتثاث من الأصل، وحين وقعت الفتاة بين الاختيارين، اختارت الجذر والأصل، وأعرضت عما يستأسلها من أصل تربتها.

إن الشاعر العربي وهو يستحضر المرأة الأجنبية، يتجاوز قوميته، وجذور الوطن والعرق واللون، كما يتجاوز "حدود المذاهب إلى الوحدوية في الله: التي يختلط فيها (الأنا) و (الأنت)، وتجاوز كذلك الفروق والنزعات العنصرية، وتاق إلى مجتمع إنساني متجانس."[50]

وقد نظر الشعراء إلى المرأة الأجنبية على كونها إنسانا قبل كل شيء، وماذامت إنسانا فهي قيمة حضارية وروحية، وبناء على ذلك تكون علاقته بها

---

[50] - فصل سالم العيسى/ النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية. دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006. ص: 31.

"علاقة عضوية وثابتة، تفرضها الذات المتعطشة إلى لقاء الآخر لقاء إنسانيا يخفف وطأة الحياة ومصاعبها."[51]

وهذه القصة فيها دعوة صريحة إلى التمسك بالقيم العربية والمبادئ الإسلامية، ضد كل التيارات المغرضة والدعوات المغررة، التي تهدف إلى سلخ العربي عن جذوره، واستئصال المسلم عن فرع شجرته الإسلامية الزكية.

وعلى العموم فقد كانت المرأة الأجنبية بالنسبة للشاعر العربي ربط للقيم الإنسانية وتوحيدها، من خلال استنهاض شخصيات تعلي تلك المبادئ، أم تنزلها عن عرشها، والعمل على إزالة الحواجز بين عوالم الإنسانية وتقريبها، وهو بالتالي "لا يخضع لواقعه السائد كما هو، بل يحاول تجاوزه؛ لخلق عالم أرحب لطموحاته".[52]

فالشاعر الحديث إذا، يصنع عالمه بنفسه، وطريقته الخاصة، تقوده في ذلك نزعاته الوجدانية المختلفة، ويصبح "استحضار الشخصيات الأجنبية، أمرا ضروريا يزجيه الشاعر لبني جلدته؛ ليروا أنفسهم من خلالها، ويعتبروا بدورها الاجتماعي والحضاري في الحياة."[53]

لقد حاول الشعراء الذين لجئوا إلى استحضار الشخصية الأجنبية نقل الموروث الثقافي العالمي إلى الآداب العربية، محاولين التجديد فيه، وبعث روح العصر ومتطلباته، عن طريق محاكاة أحداث حياتهم ووقائعهم بغض النظر عن زمانها ومكانها؛ لملائمة المضامين الجديدة للعتيقة، في تجربتها الإنسانية.

---

[51] - جرجس سعادة/ الموضوعات الأساسية في شعر الرابطة القلمية. ص: 434، نقلا عن: فصل سالم العيسى/ النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية. ص: 119

[52] – عبد القادر فيدوح/ الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي. دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، ط 01 ، 2010. ص: 397

[53] – أرنست كاسيرر/ الدولة والأسطورة. ترجمة حمدي محمود. الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1975. ص: 56 (بتصرف).

وهكذا كان سعي الأدباء العرب المحدثين في استحضار صورة المرأة الأجنبية واستنهاض التراث الأجنبي، واستنطاق تاريخه، ليس مجرد سرد لأحداث التاريخ، بل أصبح رسالة يرفعونها بإيمان وإخلاص، ويرون فيها قوة دافعة إلى الأمام تزيدهم ثقة وإيمانا، والظاهرة البارزة في مثل القصائد السالفة، أنها لم تكن تتغنى بالشخصيات الأجنبية لذاتها، ولكن لربطها بواقع الأمة العربية ومعضلاتها، وبدافع من نزعة الشعراء الإنسانية.[54]

وقد وعى شعراؤنا العرب كون ماضيهم حافلا بصور المرأة على اختلافها وتشعبها، فاستنهضوا التاريخ واستنطقوا شخصيات الماضي، لإثبات تاريخهم وقوميتهم التي شكك فيها المستشرقون، وحاول محوها المستعمرون، وعمل على قمعها قبلهم الصليبيون لأنهم آمنوا أن "التاريخ هو ذاكرة المجتمع"[55]، يحدوهم في ذلك واجب الالتزام، لكنهم كذلك راحوا يستوحون صورا من تاريخ غيرهم؛ رأوا فيها حافزا قويا لنهوض أمتهم الحديثة، أو خطرا متربصا بهم، فرأوا وجوب التحذير منه، وبالتالي اتخذوا تلك الشخصيات . ولو لم تكن عربية . نقطة انطلاق نحو تاريخ عربي مجيد.

وهكذا راحوا يبحثون عن علاقات أكثر أصالة وربطا وتوحيدا لتاريخ الشعوب؛ فجاء أدبهم نتاج تفاعل فكري عالمي، حاملا لرسالة إنسانية خيرة تذيب العصبيات الإقليمية، وتهتف ببوق الحرية، وتدعو إلى الإيخاء والمساواة بين أبناء السلسلة البشرية على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم، وأديانهم، وهي دعوة تلغى فيها كل أشكال التفرقة بكل المقاييس، فنقلوا لنا صورا متباينة للمرأة الأجنبية؛ من الوفية، إلى الفاضلة، فالمحاربة، فالمقموعة، فالمجرمة السياسية...، كما نقلوا تلك الصور المتباينة المتناقضة من قبل لنظيرتها العربية.

---

[54] – محمد المبارك/ الأمة العربية في معركة تحقيق الذات. ص: 166. عن: عمر الدقاق/ الاتجاه القومي. ص: 238 (بتصرف).

[55] – عزة النص/ مقال منشور في مجلة الآداب، بيروت، لبنان، عدد نيسان 1960. ص: 02، عن: عمر الدقاق/ الاتجاه القومي. ص: 239

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

1- إبراهيم العريض/ العرائس. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1946.

2- أبو علي القالي/ الأمالي. الهيئة العامة للكتاب، 1975، أو طبعة مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، 1373 هـ/ 1953م.

3- إلياس فياض/ رفيف الأقحوان. ديوان فياض، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1954.

4- دائرة المعارف الإسلامية. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، المجلد الرابع، العدد السابع.

5- شبلي ملاط / الديوان. دار الطباعة والنشر اللبنانية، بيروت، 1952.

6- عمر أبو ريشة/ مختارات. مطابع دار الكشاف، بيروت، لبنان.

2- المراجع:

7- زهير ميرزا/ إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر. دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1963.

8- عبد الصمد زايد/ المكان في الرواية العربية (الصورة والدلالة). دار محمد علي للنشر، صفاقس الجديدة، الجمهورية التونسية، طبعة 2010.

9- عبد القادر فيدوح/ الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي. دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، الطبعة الأولى، 2010.

10- عمر الدقاق/ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث. دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1985.
11- فصل سالم العيسى/ النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية. دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006.
12- محمد لطفي جمعة/ العناصر الإنسانية في أدبنا الحديث. مجلة الكتاب، المجلد الثالث. دار المعارف، القاهرة، مصر، 1946.

3- المراجع المترجمة:

13- أرنست كاسيرر/ الدولة والأسطورة. ترجمة حمدي محمود. الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1975.

4- الدوريات:

14- مجلة الآداب، بيروت، لبنان، العدد الثاني، 1956.
15- مجلة الآداب، بيروت، لبنان، عدد نيسان 1960.
16- مجلة العصبة، بيروت، لبنان، كانون الأول، سنة 1939.